المبحث الرابع

رثاء المدن والممالك

٣ ـ رثاء المدن والممالك :

اختلف الدارسون في مفهوم (رثاء المدن والممالك) ومنهم من فرق بين رثاء المدن ورثاء الممالك فاطلق الاول على تلك المدن التي سقطت في يد الاسبان واستلبت من ايدي المسلمين فبكاها الشعراء . وأطلق الثاني على دول ملوك الطوائف التي سقطت بدخول المرابطين الى الاندلس . وما نظمه الشعراء من قصائد شعرية تأسى وتأسف على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهؤلاء الملوك[١] .

ويصح ان ينسحب هذا المفهوم على المدن التي سقطت وخربت بفعل الفتن التي طرأت على الأندلس بسبب فساد الاحوال السياسية . وترديها . وفرق بين الاتجاهين من حيث حجم النتاج ونوعية القصائد التي نظمت في كل .

وفي هذا الموضوع يرى الدكتور سعد شلبي أن الاندلسيين سجلوا السبق في رثاء المدن واما رثاء الممالك فقد كان مقدمة وإرهاصاً لتفوقهم فيه[٢] .

اطلق الدارسون على هذا اللون من الشعر اسماء اخرى فسمي بـ (شعر النكبات والكوارث)[٣] و (الشعر الحزين) حيث وجد فيه الدكتور بدير متولي حميد احد ألوان ثلاثة تفوق فيها الاندلسيون[٤] . وسماه عبد الله كنون (الشعر الوطني)[٥] . وكذلك استوحى احد الباحثين تسميته فجعلها موضوعاً لرسالته الماجستير « الوطن في الشعر الأندلسي »[٦] . وجاء حديث الدكتور شوقي ضيف عاماً عن هذا اللون من الرثاء . حيث سماه : ندب الدول والبلدان[٧] .

---

(١) البيئة الاندلسية واثرها في الشعر ٣٢٤ .

(٢) نفسه ص ٣٣١ .

(٣) ادب النكبات ، مجلة النداء الاجتماعي ١٩٥٥ .

(٤) قضايا اندلسية ١٣١ .

(٥) الشعر الاندلسي ، مجلة المجمع العلمي العربي ٢١ / ٣ / ٢٩٣ .

(٦) الوطن في الشعر الاندلسي ـ عبد الحميد ابراهيم شيحه دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

(٧) الرثاء ص ٤٠ ، ٤٧ ـ سلسلة فنون الأدب العربي ـ الفن الغنائي (٢) .

يكاد الاندلسي ينفرد بهذا الموضوع ، حيث كان القرن الخامس الهجري أحفل عصوره بالصراع الذي أدى الى سقوط مدن الاندلس وممالكه ، وقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع اندلسي خاص ، فعُدَّ أبرز معالم الشخصية الأندلسية ، وتفوق على شعر الرثاء بصورة عامة ، وعلى قصائد رثاء المدن والممالك في المشرق ، بصورة خاصة ، والأمر يعزى الى وجود الدوافع والمحفزات التي لم يحصل مثيلها في المشرق ، كما لم تكن بهذه السعة ، وعمق التأثير ، فقد كانت الحروب سجالاً بين المسلمين والاسبان ، وكان يتفق أن تسقط مدينة فيستردها المسلمون ثانية ، لتسقط ثالثة ، مما يؤجج العواطف ويضرم المشاعر ... غيرة على دمائهم واموالهم واعراضهم ، يراها الشّاعر مهدرة ... ويرى أن زمام الأمر قد أفلت من يديه ... في مدينة تقلب في نعيمها ... وحفظت مخيلته لها ذكريات عبقة ، تمسي مهيضة الجناح ، يفتك بها العدو ، ويشعل نار العداوة والبغضاء ، فما يكون منه الا ان يرثي تلك المدينة الساقطة ، بشعر أشبه ما يكون بالندب ، والبكاء ، والتفجع ، في زفرات وأنات قلب كليم .

في الوقت الذي لم يكد شاعر المشرق يكفكف دموعه حتى يقبل على تهنئة الحاكم الجديد فانشغالهم بالخلفاء والحكام الذين خلفوا السابقين صرفهم عن إطالة الحسرة والبكاء على الدول السابقة ، بينما كان سقوط الدولة بالاندلس يحمل اكثر من معنى داعياً الى اطالة التأمل والاعتبار .

اتجه الشاعر الاندلسي تارة الى تسليم الأمور الى الله والشكوى لسوء الحال ، والهرب من المدن الساقطة ، بعد البكاء والعويل ، وتارة الى استصراخ الملوك واستنهاض هممهم ، واستنصارهم ، ويتجه الى ضمائر المسلمين يسألهم شد العزائم ، للانتقام من العدو المتربص ، ثم يطبب الشاعر جراحه ويأسوها مخاطباً الرسول (صلى الله عليه وسلم) مستمداً منه القوة والأيد تارة اخرى وفي كثير من الأحيان يتجه الى الوصف التفصيلي للحالة التي حلّت بالمسلمين إثر سقوط مدنهم وممالكهم .

واذا كان الشعر الأندلسي قد أحرز هذه المرتبة في هذا الميدان فليس معنى هذا أن المشرق لم يعرف هذا اللون ، فالباحث يجد قصائد متناثرة في مصادر الأدب والتاريخ تصور النكبات وتحكي الويلات والمصائب ، التي حلت بتلك الامم ، ومن أقدم ما قيل قول عدي بن زيد العبادي (ت ٣٥ ق . هـ) في قصيدة مطلعها[١] :

---

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي ٨٤ ـ ٩٢ (حققه وجمعه محمد جبار المعيبد وزارة الاعلام بغداد (١٩٦٥) .

أرواح مودَع أم بـكـــــور لك فاعلم لأيّ حالٍ تصـير

وهي في خمسين بيتاً . وعلى المنهج نفسه . قول الاسود بن يعفر يبكى ال محرق في داليته التي مطلعها[1] :

نام الخليّ وما أحسُّ رقـادي والهم محتضر لديَّ وسـادي

ويذهب هذا المذهب الأعشى الاكبر (ت ٧ ق . هـ) اذ يرثي قصر ريمان من قصيدته التي مطلعها[2] .

أصرمت حبلك من لميـ ـسَ أم طـال اجتنابـه ؟

ولو ألقينا نظرة على سفح التاريخ . لوجدنا الشعر سجلاً حافلاً في تصوير النكبات التي حلت في العالم الاسلامي بجناحيه . المشرق والمغرب ... فقد رثى ابو العباس الأعمى دولة بني أمية . ورثى آخرون دولة العباسيين بدخول المغول الى بغداد . ودولة الطولنيين وغيرها من الدول .

كما ندبوا مدناً اسلامية حلّت بها فتن جائحة ... وهي ظاهرة مألوفة . تاريخياً فمن ذلك رثاء عمرو بن عبد الملك الوراق وابي يعقوب الخريمي بغداد ١٩٧ هـ بالفتنة التي حلت بين الامين والمأمون ـ وكذلك رثاء البحتري دولة المتوكل العباسي ٢٤٧ هـ ورثاء ابن الرومي مدينة البصرة بافساد الزنج إياها ٢٧٧ هـ . وقد رثى الشعراء بيت المقدس ومدن الشام التي سقطت اثناء الحروب الصليبية ... وبقى الشعر ـ حتى العصر الحديث ـ يرسم معالم المدن التي تسقط وتحل بها النكبات[3]. وهي جميعاً تدخل في الندب لا التأبين او العزاء[4] .

لكن رثاء المدن والممالك في الأندلس تميز على صِنوه بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي استمرت عند الأندلسيين . وشهودهم هذه الحال بين سمعهم وبصرهم لتتكرر .. كما تميز بغزارة النتاج الشعري . ولذلك يعد الدكتور الطاهر مكي بكاء الممالك المنهارة . والمدن الذاهبة فناً اندلسياً أصيلاً . وجدت بعض دوافعه في

---

(١) ديوان الاسود بن يعفر رقم ١٢ (تحقيق د. نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد سنة ١٩٧٠) .

(٢) ديوان الاعشى الكبير ٢٨٩ (شرح وتعليق د. محمد محمد حسين (ط النموذجية د ـ ت) .

(٣) ينظر الرثاء ـ شوقي ضيف ص ٥١ .

(٤) ينظر حول رثاء المدن في المشرق ، الادب الاندلسي بين التأثير والتاثر ٢١٠ ـ ٢٢١ .

المشرق والمغرب على السواء . وخص الأندلس ببعضها . وتفرد في الحالين بأنه جرى مع هذه الدوافع الى غايتها . فكان له معها قصيد رائع احياناً . ودون الجيد أحياناً أخرى تبعاً لثقافة الشاعر . وطاقته النفسية . وحظه من تجارب عصره عمقاً وأتساعاً[١] . الا أن الدكتور محمد رجب البيومي لا يذهب في نظرته لهذا اللون من الشعر مذهب المعادلة المنطقية . بل يجد أن من الأنصاف الأقرار بأن الأندلس قد برعت براعة مشهودة[٢] .. وقبله أقر بهذا التفوق الدكتور أحمد أمين[٣] ..

وعلى ضوء ما تقدم بنا من مفهوم رثاء المدن والممالك . سنتناول ابرز التجارب الشعرية :

الاتجاه الاول : رثاء مدن أندلسية قد خربت وفسد النظام فيها . بفعل المحن والفتن التي فتكت بها . بما كسبت أيديهم حيث صار الحكم فيها ملكاً عضوضاً . يطمع فيه القوي والضعيف . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في عصر الفتنة (٣٩٩ ـ ٤٢٢) . تلك التي وصفت بانها جائحة ومبيرة فقد تعاقب خلالها على حكم الأندلس ثلاثة عشر حاكماً . فرثى ابن حزم قرطبة شعراً ونثراً ومما وصل قصيدة في سبعة أبيات . يصفها بروفنسال بأنها (قصيدة عصماء لا يعدلها في نوعها شيء[٤]) . ومطلعها[٥] :

سلام على دار رحلنا وغودرت خلاءً من الأهلين . موحشة قفرا

وفيها حسرة وبكاء على ما نزل بتلك المدينة من خراب

فيا دارُ لم يقْفرك منا اختيارنا ولو أننا نسطيع كنتِ لنا قبرا
ولكن أقداراً من الله أنفذت تدمرنا طوعاً لما حل أو قهرا

ورثاها شعراء آخرون منهم ابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) في قصيدة ومقطعة يقول في الاولى[٦] :

---

(١) دراسات اندلسية ٢٢٩ .
(٢) الادب الاندلسي بين التأثير والتاثر ٢٦٦ .
(٣) ظهر الاسلام ٣ / ٢٠٣ .
(٤) سلسلة محاضرات ص ١٣
(٥) اعمال الاعلام ١٠٧ وينظر تاريخ الأدب الأندلسي ١/ ١٣٩
(٦) ديوانه رقم ٢٦

ما في الطلولِ من الأحبّة مخبر ... فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألن سوى الفراق فإنه ... ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا ... في كل ناحية وباد الاكثر

والقصيدة كسابقتها فيها تفجع وبكاء وندب لدار ضمت ذكريات عبقة للشاعر، حيث يستذكر محاسنها، وجمال الطبيعة فيها، وقد ضرب الأمن والسلام رواقه فتعمم القوم بجمالها وبهروا بفتنتها المتمثلة في قصورها، الزاهرية والعامرية، والمسجد الجامع، ومسالك الأسواق، حتى عصفت بها الفتنة فأذهبت بهجتها ونقضت بناءها الشامخ، وتذهب نفسه حسرات، عليها وعلى المعالم الحضارية، والخسارة التي حلت بازهاق نفوس كثيرة من العلماء والادباء، وكان احدهم، ابو الوليد بن الفرضي (توفي لست خلول من شوال سنة ٤٠٣ هـ)، وبقي في داره ثلاثة ايام مقتولاً[١]، وفي هذا تجيء ابيات ابن شهيد تفيض بمعاني الاسف والأسى على ذكرياته فيها:

ياجنةً عصفت بها وبأهلها ... ريح النوى فتدمرت وتدمروا
أيام كانت عين كل كرامة ... من كل ناحية اليها تنظر
أيام كانت كفُّ كل سلامة ... تسمو اليها بالسلام وتبدر
حزني على سَرواتها ورواتها ... وثقاتها وحماتها يتكررَ
نفسي على آلاها وصفائها ... وبهائها وسنائها تتحسر
كبدي على علمائها، حلمائها ... أدبائها، ظرفائها، تتفطر

ولعلها أطول قصيدة وصلت الينا تصور فتنة قرطبة، حيث تبلغ ثلاثين بيتاً. واما مقطعته فهي نونية مردفة بألف موصولة بياء مختومة بهاء السكت التي تحكي الحسرات والزفرات يرثي فيها قرطبة عجوزاً شمطاء حيث يقول:[٢]

عجوز لعمر الصبا فانية ... لها في الحشا صورة الغانية
تردّيت من حزن عيش بها ... غراماً فيا طول أحزانية

وتبدو أبعاد هذه الفتنة والالام والاشجان التي اعتملت في صدور عدد من الشعراء حيث أرخوها، فيما ينقل الينا الشيخ محيي الدين ابن عربي ابياتاً قال انه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها رثاءً، وهي:[٣]

---

(١) الصلة ١ / ٢٥٢
(٢) ديوان ابن شهيد رقم ٦٩
(٣) ينظر دولة الاسلام في الاندلس ٤٠٠ ـ ٤٠١

ديارٌ بأكناف الملاعب تلسمعُ ... وما إن بها من ساكنٍ وهي بَلقَعُ
ينوحُ عليها الطير من كل جانبٍ ... فيصمت أحياناً . وحيناً يرجّع
فخاطبت منها طائراً متغرداً ... له شجن في القلب وهو مروّع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ؟ ... فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ونبقى مع حاضرة الأندلس وواسطة عقدها « قرطبة » حيث حفظت لنا المصادر قطعتين غير منسوبتين في البيان المغرب . مطلع الأولى [1] :

بَكِّ على قرطبة الزين ... فقد دهتها نظرةُ العين

ومطلع الثانية : [2]

أضعتم الحزم في تدبير أمركم ... ستعلمون معاً عقبى البوار غدا

وما ذهب وفقد من شعر في رثاء المجد الباذخ . والعز الشامخ . لهذه المدينة كثير فقد قال الخولاني عن ابن عصفور الحضرمي . ابي القاسم احمد بن محمد (ت ٤١٠ هـ) : (انشدني كثيراً من أشعاره في رثاء قرطبة)[3] ولم يصل الينا منها شيء

ويبدو ان احداث الفتنة لم تقتصر على قرطبة ـ مركز الخلافة ـ بل تجاوزتها الى مدن الاندلس الأخرى . فقد أرخ ابو اسحاق الالبيري الشاعر الزاهد (ت ٤٦٠ هـ) . لاحداث خراب البيرة[4] سنة ٤٠٠ هـ . وهي احداث مماثلة لنظيرتها في قرطبة في آثارها السلبية . ويعلل ابو اسحاق تلك النكبة بكثرة الذنوب وترك الفروض والواجبات . وهي في عشرين بيتاً[5] :

يضيع مفروض ويغفل واجبٌ ... واني على أهل الزمان لعاتب
أتندب أطلال البلاد ولا يرى ... لألبيرة منهم على الأرض نادبٌ
فآها الوفا . تقتضي عدد الحصا ... على عهدها ما عاهدتها السحائب

---

(١) البيان المغرب ٢ / ١١٠ (ط دار الثقافة بيروت) . فرحة الأنفس ١ / ٢ / ٢٠٦
(٢) البيان المغرب ٢ / ١١٠
(٣) الصلة ١ / ٣١
(٤) إلبيرة : كانت من حواضر الاندلس الجليلة . أسسها عبد الرحمن بن معاوية . واسكنها مواليه . ثم خالطهم العرب بعد ذلك . خربت في الفتنة وانفصل اهلها الى غرناطة وبينهما ستة أميال ينظر الروض المعطار : ٢٨
(٥) ديوانه ٧٣ ـ ٧٥

واين بحار العلم والحلم والندى ؟ وأين الأكف الهاميات السواكب ؟
شققنا على من مات منهم جيوبنا وكان قليلاً أن تشق الترائب
لساءلت عنهم رسمها فأجابني « ألا كلّ شيء ما خلا الله ذاهبُ »

ومما يندرج ضمن هذا الاتجاه الممالك التي رثيت في عصر الطوائف بدخول المرابطين ، وقضائهم على حكامها ، وأشهر مملكتين نظمت فيها قصائد الرثاء ، مملكة بني عباد ، في اشبيلية ، ومملكة بني الافطس في بطليوس .

وقد حظيت الاولى بمكانة رفيعة بين ممالك الأندلس ، حتى نستطيع أن نعدها أقوى ممالكها في عصر الطوائف ، ولذلك اجتمع فيها من الشعراء عدد كثير ، وممن عاش في رخاء بني عباد ، شاعرهم ابن اللبانة الداني الذي احتفظت ذاكرته بصور عميقة الاغوار لآخر ملوكها المعتمد بن عباد فألف بعد زوال ملكه كتابين هما « نظم السلوك في مواعظ الملوك في اخبار الدولة العبادية » وكتابه « الاعتماد في أخبار بني عباد » ولم يصل من الكتابين سوى شذرات متناثرة في الكتب[1] .

وقد تضمن ديوانه قصائد تفيض بمعاني الأسى والأسف على الملك الزائل ، والمجد الحائل ، بعد أن خُسِف بالمعتمد وأسرته ، ورُحل عن إشبيلية منفياً الى أغمات ، في بلاد المغرب ، وأشهر قصيدتين تائية مطلعها[2] .

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من مناياهن غايات

وهي في اثنتين واربعين بيتاً وبعد أن يبكي على دولتهم الزائلة يمنى نفسه في أن تعود ثانية حيث يقول :

لو كان يفرج عنه بعض أونة قامت بدعوته حتى الجمادات
لهفي على آل عباد فإنهم أهلةٌ مالها في الأفق هالاتُ

واما القصيدة الثانية فهي أجود شاعرية ، وأدق في التعبير عن معالم النكبة وأطول نفساً من سابقتها ومطلعها[3] :

تبكي السماء بمزن رائح غادي على البهاليل من ابناء عباد

ونستطيع أن نتعرف على مدى براعة الشاعر في قصيدته بموازنتها على ما نظم من أشعار في هذه النكبة . فبين أيدينا قصيدتان لشاعرين مشهورين .

---

(١) ينظر ما وصل من هذه النصوص النثرية في ديوان ابن اللبانة الأندلسي بتحقيقنا .
(٢) ديوانه (بتحقيق د . محمد مجيد السعيد) رقم ١٣ / ١ ، ١٦ ، ٢٠
(٣) ديوانه رقم ٢٦

الأولى : لابن حمديس الصقلي الذي كانت تربطه صلات حميمة بالمعتمد بن عباد . فدعاه الوفاء الى أن يوجه قصيدته اليه وهو في سجنه وفيها يقول[1] :

أبادَ حياتي الموتُ ان كنت ساليا ... وأنت مقيم في قيودك عانيا
وان لم أبار المزن قطراً بأدمع ... عليك فلا سُقّيت منها الغواديا
وهل أنا الا سائل . عنك سامع ... أحاديث تبكي بالنجيع المعاليا
قيودك صيغت من حديد ولم تكن ... لأهل الخطايا منك الا أياديا

وفيها يسترسل في الحديث عن محامد المعتمد ومكارمه . ويصف شجاعته وبأسه وجوده ونوءه . والخلاء الذي داهم القوم بذهاب دولته .. وليس له اختيار في القدر الذي نزل به ويختم القصيدة التي جاءت في ستة وثلاثين بيتاً بوصف ممدوحه بانه الحي الذي يستحق الرثاء :

سأدمي جفوني بالسهاد عقوبة ... اذا وقفت عنك الدموع الجواريا
وامتع نفسي من حياة هنيئة ... لانك حي تستحق المراثيا

ومن هنا فان شخصية المعتمد بن عباد . اخذت ابعاد الشخصية الاسطورية ـ بعد نكبته ـ تأخذ الابعاد التي تسبغ على العظماء بعد وفاتهم .

والثانية : لابن عبد الصمد وقد نظمها بعد عام من وفاة المعتمد (ت ٤٨٨ هـ) وفيها يقول :

ملك المملوك أسامع فأنادي ... ام قد عدتك عن السماع عوادِ

وقد كان هو الآخر من شعراء المعتمد بن عباد الا أن الدراسة المتأنية للقصيدة تبين لنا تأثر الشاعر في داليته بدالية ابن اللبانة . التي نظمت سنة ٤٨٤ هـ . وقد اختار الوزن والقافية وحركة الروي التي التزمها ابن اللبانة في قصيدته[2] .

يستهل ابن اللبانة قصيدته بالحديث عن أفضال بني عباد . ومكارم أخلاقهم . وسجاياهم في الكرم . التي طبعوا عليها . والمنزلة السامقة التي أحرزوها فيصفهم بالجبال . والمزن . وباليانعات التي ذوت أنوارها . ويذهب الى اكثر من ذلك . حين يجعلهم كعبة الآمال . ويعزي الضيوف والنزلاء . كما يواسي الفرسان

---

(١) ديوانه رقم ٢٥

(٢) ديوان ابن اللبانة الاندلسي دراسة وتحقيق ص ٦٢

والابطال . الذين تنعموا في ظل العبابدة . وتبلغ المأساة ذروتها حين يجسم لنا مشاهد مؤلمة . ومناظر محزنة . من ترحيل بني عباد في البحر فيقول :

نسيت الا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العَبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حان الوداعُ فَضَجَتْ كل صارخةٍ ... وصارخ من مفداةٍ ومن فاد
خُط القناع فلم تحجبْ مخدرةٌ ... ومزَقتْ أوجه تمزيق أبراد
سارت سفائنهم والنَوح يَصحبها ... كأنها ابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد

وهكذا يمضي شاعرنا بهذه النبرة الحزينة . مصوراً مشهد دولة تهوى الى أسفل من عل « ان تناسق التعبير مع الشعور . وتطابق الانفعال مع شحنات الالفاظ . واستنفاذ العبارة اللفظية للطاقة الشعورية هو ما يوصف بأنه عمل من صنع الالهام »[1] .

فقد مضت المأساة على أوجها . وأسرفت ريشة الشاعر في تصوير شدة الفاجعة . فأنك تسمع « كل صارخة وصارخ من مفداةٍ ومن فاد » وتبح الحناجر . وتغص الأصوات بالعويل والصراخ . وتستسلم مع الحادي . حين يسقط في يدها .

ويرى أحد الباحثين أن للالفاظ أهميتها ومزيتها في التعبير الفني وجماله . مستأنساً بأبيات ابن اللبانة فيقول : « فالألفاظ « خُط . ومزقت . وضجت . وصارخ وصارخة » لها من الأهمية في تصوير المشهد . واستنفاد التجربة . بحيث لا ينكرها منكر مهما تعصب لوجهة نظره » ثم يعقب بقوله « وأشهد أني قد اهتزت فرائصي فزعاً . كلما قرأت كلمات ابن اللبانة . كأن هذه الأبيات وأخريات معها سهامٌ نفذت الى مشاعري . فهزتها هزا . ومزقتها أي تمزيق . وأشعرتني بالمأساة التي حلت بالأندلس قبل فلسطين »[2]

والملاحظ أن الشاعر يعتمد في لغته على ضرب من تكرار الحروف . فقد تكرر حرف القاف . وهو من الحروف الانفجارية . خمس مرات في « القناع . مزقت . تمزيق . القطائع . مقطعات » وتكرر حرف الحاء وهو حرف احتكاكي . ست مرات في البيتين الرابع والخامس كما ورد في ثلاث مرات أخرى ... والتكرار ضرب بلاغي يعين على تحقيق الجرس الموسيقي المتناغم مع اجواء القصيدة . وقيمة القصيدة فنياً

---

(١) النقد الادبي ٢٨ .

(٢) في الرؤيا الشعرية ٩٨ .

لا تأتي من أسلوبها فحسب ، انما بزخم العاطفة الذي تزخر به ، « فربما لم نجد في الشعر الأندلسي عاطفة أعمق غوراً ، وأشد لهباً ، عاطفياً من تلك القصائد التي قالها ابن اللبانة ، وابن حمديس ، وابن عبد الصمد في نكبة المعتمد »[١] .

وممن تحدث عن جانب المأساة في دولة بني عباد ممثلاً في شخص المعتمد بن عباد ، الدكتور احمد هيكل[٢] .

ومن تلك الممالك ، مملكة بني الأفطس في بطليوس . وقد سقطت هي الأخرى بدخول المرابطين سنة (٤٨٧ هـ) ، ولم تحظ بعناية الشعراء على نحو ما تقدم معنا في مملكة بني عباد بأستثناء المراثي التي نظمها شاعرها ابو محمد بن عبدون اليابري (ت ٥٢٠ هـ) ، وتأتي أشهر قصائده رائيته المعروفة باسم البسامة ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وتتعدد روايات القصيدة لشهرتها ، وذيوعها ، حتى أنها بلغت خمسة وسبعين بيتاً برواية المعجب ، وأحرزت إعجاباً لدى القدماء والمحدثين ، فرأى ابن بسام أنه اقتفى فيها أثر فحول القدماء ، وخالف نهج المحدثين[٣] ، واما المراكشي فقد نعتها بأنها ، « قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التي أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، فجلت عن أن تسامى وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر اليها المشير »[٤] .

وذهبوا الى اكثر من ذلك حين أفردوها بالشروح كما فعل ابن بدرون ، وقد درس شرحه وقام بنشره المستشرق الهولندي دوزي ورأى في ثناء النقاد أمثال ابن خاقان وابن الخطيب مبالغة ، وبعداً عن الحقيقة ، فما لمسه في أسلوبها أنها أثقلت بالزخارف والزينة ، وأنها عجزت عن ان تثير كوامن المشاعر[٥] ، وعن مثل هذا الرأي صدر بالنثيا كذلك فزعم أنها : « فاترة الروح ، مدرسية المنهج »[٦] .

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين ١٨٨

(٢) دراسات ادبية ، بحث المعتمد بن عباد الشاعر الملك السجين ٢٧٨ ـ ٢٨٧

(٣) الذخيرة ١ / ٢ / ٨١٨

(٤) المعجب ١٢٨ ـ ١٢٩

(٥) تاريخ الفكر الاندلسي ١١٩

(٦) نفسه ١٦ .

والحقيقة أنها على الرغم من سيطرة الجانب التاريخي عليها ـ ليدل الشاعر على سعة ثقافته ـ جاءت في شوطها الأخير ، تدل على عاطفة جياشة ، إذ يأسف على المجد الزائل ، ويترحم على عزهم المنصرم .

وقد ترجمت القصيدة الى الفرنسية ، والاسبانية[١] . ومن المحدثين أعجب بها عبد الله كنون لا سيما فيما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء ، على ضياع ملك سادته ، وابادة الدهر لهم من غير ان يعرض بخصومهم المرابطين ، ولا أن يتناولهم بأدنى تجريح[٢]» وتتجلى براعة الشاعر في استعراضه للامم السابقة بشكل متكامل متسلسل بدأ بالاقدم فالقديم .

اما الاتجاه الثاني فيتمثل في رثاء مدن اندلسية سقطت بأيدي ملوك الاسبان وكان ذلك نتيجة متوقعة للحال التي بلغها ملوك الطوائف . وقد صوّر لنا هذه الحال المقري نقلاً عن الوطواط (ت ٧١٨) بقوله : « ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الأنقياد والوفاق ، الى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق . فأمتاز كل رئيس منهم بصقع ... فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ، ويحاربه في عقر داره ، الى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي .. »[٣].

بهذه المقولة استهل صاحب النفح حديثاً تفصيلياً عن رثاء مدن الأندلس الساقطة بأيدي الأسبان .

ومن اعظم الاحداث المبكرة التي نزلت بالأندلس ، نكبة « بربشتر » التي كانت من أمهات مدن الثغر الاعلى حصانة ومنعة . ولكن غزاها أهل غاليش ، والروذمانيون على غرة ، وقلة عدد من أهلها وعدة ، فحاصروها أربعين يوماً ، حتى سقطت سنة ٤٥٦ هـ « وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لاتلحقه الصفة على الحقيقة »[٤]

وعلى الرغم من أن دخول العدو واحتلاله لها لم يستغرق أكثر من تسعة أشهر فأن النتاج الشعري الذي أثمر عن نكبتها كان منمازاً . فقد سحت قرائح عدد من الفقهاء الشعراء في وصف تلك النكبة ، بعد أن تأججت عواطفهم ، لعظم المأساة ، حيث دوّت في أرجاء الأندلس وذاع خبرها فلم يطل أسر المدينة ، وسرعان ما انتظمت في

---

(١) نفسه ١١٩

(٢) الشعر الاندلسي ، مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٥٦ ٢١ / ٢ / ٢٨٠ ، ٢٩٦

(٣) نفح الطيب ٤ / ٤٤٦

(٤) النفح ٤ / ٤٥٠

سلك اخواتها . في ظل حكم المسلمين . وتتصدر هذه القصائد أبيات الفقيه ابن العسال الألبيري (ت ٤٨٧ هـ) وما بين أيدينا منها اثنا عشر بيتاً[١] .

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الإصماء
هتكوا بخيلهم قصورَ حريمها ... لم يبق لا جَبل ولا بَطحاءْ
جاسوا خلال دِيارهم فلهم بها ... في كلّ يومٍ غارةٌ شعواء

ولا يلبث الشاعر أن يعرض بعامّة المسلمين وحكّامهم . ويعزو جسامة النكبة . الى ضعف وخور حالهم . وشيوع الذنوب بينهم . وكنت قد عرضتُ للقصيدة . بما فاضت من معان اسلامية وغيرة دينية . في الذود عن المسلمين في موضع سابق[٢] .

واما الشاعر الفقيه الثاني الذي استثارته هذه النكبة فهو أبو حفص عمر الهوزني[٣] ... وكان له شأن آخر . يختلف فيه عما عهدناه لدى شعراء رثاء المدن والممالك من الاستسلام للبكاء وندب الأعزة والوقوف على معارض المدينة المروعة . ومصارع القوم فيها . بل نجده يبحث عن الدواء للمدينة المهيضة الجناح .. فأخذ يخاطب أولى الأمر وأرباب الدواء ليطفئوا جمرة صدره . ويشفوا غليل المسلمين . وقد حفظ لنا ابن بسام فصولاً عديدة من رسائله في خطاب المعتضد العبادي . وكانت رسائله تلك حمماً بركانية في استنهاض الهمم واستجاشة العواطف . وكان يضمنها مقطعات من شعره وهي أدخل في باب الجهاد والاستنفار من شعر رثاء المدن والممالك . ولعله كان يخاطب القادر احمد بن هود بقوله :[٤]

أيا أسفاً للدين إذ ظلّ نُهبةً ... بأعيننا والمسلمون شهودْ
ويُثلبُ بيت الله بين بيوتكم ... وقادره عن رد ذاك قعيدُ

---

(١) الروض المعطار ٩٠

(٢) الاتجاه الاسلامي ٢٢٣ ـ ٢٢٤

(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ٨١ ـ ٨٢ يستفاد منها انه كان من أعيان اشبيلية ، ذات نفسها ، وناجذها الذي عنه تبسم ، وواحدها الذي بيده ينتقض ويبرم ، وكانت صلته بالمعتضد ـ قبل ان يتولى رياسة اشبيلية ـ قوية ، ومتينة وما بينهما « التلاف الفرقدين ، وتضافر اليدين ، واتصال الأذن بالعين ، ولكنه كان يوجس منه ذعراً » ، فخرج عن اشبيلية سنة ٤٤٤ هـ في رحلة للحج ، وروى الحديث في رحلته ، فلما عاد استقر في مرسية ، ومنها وجّه رسالته الى المعتضد ، وما لبث أن استدرجه في الرجوع الى اشبيلية ، فكان في رجوعه حتفه ، ولي إيابه مصرعه بعد عامين فقط عام ٤٦٠ هـ

(٤) الذخيرة ٢ / ١ / ٩٢ .

ولم يحدث في تاريخ الأندلس ان تسقط مدينة كبيرة ، مثل طليطلة التي وصفت بانها دار الملك بالاندلس ، كما لم يحدث أن تسقط مدينة مثلها الى غير رجعة مثلما حصل معها عام ٤٧٨ هـ .

وعلى الرغم من المصاب الجلل والخطب الجسيم الذي حل بسقوطها فإن جلّ ما وصل إلينا في رثائها لا يتجاوز نصين هما :

الأول : في أربعة أبيات لعبدالله بن العسّال (ت ٤٨٧) ـ تقدمت معنا أبياته في نكبة بربشتر ـ وكان قد رحل عنها الى غرناطة فقال[١] :

يأهـلَ أندلـس حـثّوا مَـطـيَـكـمْ ... فما المقامُ بها إلا من الغَلطِ
الثوب ينسلّ من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ

فهل يدعو الشاعر في أبياته الى الانهزامية ؟ إن الأمر ليس كذلك بل هو اسلوب في التعبير مبالغة في التنبيه والتذكير ، اذ ليس من المعقول أن يدعوا الشاعر الى التولي يوم الزحف ، وهو الزاهد الفقيه[٢] ، وسنلاحظ أن مثل هذه الدعوة ستتكرر على ألسنة شعراء آخرين ، باصرار أشدّ بعد تردي احوال الجزيرة في مطلع القرن السابع الهجري ، هذا ابو اسحاق بن الدباغ الاشبيلي يقول ، في جملة ابيات بعد وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ[٣] :

فما في أرض أندلس مقامٌ ... وقد دخل البلا من كل باب

وقد وجدنا نبرة أخرى تعبر عن النكبة وتحاول أن تجيب عن السؤال الذي كان معادلة صعبة لأبناء المدن الأندلسية الساقطة بأيدي الأسبان ، أيهما أفضل البقاء في المدينة في ظل الأعداء ام الخروج منها ؟ ومن هؤلاء الشعراء ابو المعالي الاشبيلي الفقيه الواعظ الذي مال الى طرف المعادلة الثاني ، وخرج عن بلاده ، وكان مما انشده بمسجد رحبة القاضي قوله[٤] :

أنا في الـغربة أبـكـي ... ما بـكـتْ عـيـن غريـبِ
لـم أكـنْ يوم خروجـي ... مـن بلادي بـمـصـيـبِ

---

(١) نفح الطيب ٤ / ٤٤٧ .
(٢) ملامح من النقد السياسي ص ٢٥٨
(٣) النفح ٤ / ٤٦٤
(٤) النفح ٤ / ١١٣ ـ ١١٤

عـجـبـاً لـي ولـتـركـي وطـنـا فـيـه حـبـيـبـي

ان الماكث في المدينة كان يشعر بالمرارة والندم بسبب بقائه في دار الحرب . ولم تكن الحال افضل عند من يغادرها على نحو ما رأينا .

واذا كان الأشبيلي الفقيه . اتخذ قراره فخرج ثم شعر بالندم . فان الحيرة والتردد استوليا على غيره على نحو ما صور ذلك الجزار السرقسطي . حين أزمع رجل الرحيل من سرقسطة فاراً منها حذاراً من العدو . وأبطن أسباب رحيله الحقيقية فأظهر في فراره المسير الى الحج . لكنّ البحر الذي واجهه ثناه عن نيته فجزع وقفل راجعاً[1] !

أمّا النص الثاني ففيه تتجلى فداحة نكبة طليطلة في مرثاة طويلة . لا يعرف صاحبها تجاوزت ابياتها الثمانين ... . ونستطيع أن نعَدها القصيدة اليتيمة . التي جسّدت عِظم النكبة وعالجته معالجة تفصيلية وفيها يقول[2] .

لثكلكِ كيفَ تبتسمُ الثغور سروراً بعد ما سُبيت ثغور
لقد قصمت ظهورَ حين قالوا أميرُ الكافرين له ظهور
أنأ منْ أن يحلّ بنا انتقامٌ وفينا الفسق أجمع والفجور ؟

ونجد الشاعر على حالة من الجزع . وضيق النفس . لما بلغته هذه المدينة من هوان وذل إذ طاش حلمه وذهب يقينه بعد أن غرَّ الشيطان بالقوم :

لقد ذهب اليقينُ فلا يقينٌ وغرَّ القومَ بالله الغرور

ثم نجده يتطلع الى البطل المنقذ ويشيم سيماء النصر مبتهلاً في ذلك الى الله

ألا رجلٌ له رأيٌ أصيل به مما نحاذر نستجيرُ ؟
ونرجو أن يتيح الله نصراً عليهم أنه نعم النصير

ولم تكن نكبة بلنسية أخف وطأة مما حلّ بمدن الأندلس الأخرى . لكنها قد تمثلت بدخول قائد اسباني هو السّيد القمبيطور . بعد حصار طويل استمرّ حوالي عشرين شهراً لآخر رمضان ٤٨٥ ـ منسلخ جمادي الاولى سنة ٤٨٧ هـ[3] حيث أرغم

---

(١) ديوان الجزار السرقسطي ق ٥٠ . ودراستنا حول الديوان ص ٢٨٤ مجلة آداب المستنصرية العدد ١٥ بغداد ١٩٨٧ .

(٢) النفح ٤ / ٤٨٣

(٣) البيان المغرب ٤ / ٣٢ ، ٣٩

قاضيها ابن الجحاف المعافري على التسليم وعقد الصلح . وقد أطنب المؤرخون العرب بايراد تفصيلات عن وصف النازلة العظيمة التي نزلت بساحتها . ومنهم ابن علقمة عصري الاحداث في كتابه « البيان الواضح في الملم الفادح » الذي ينقل منه صاحبا الذخيرة والبيان المغرب .

وتسبغ الرواية الاسبانية على تلك الاحداث المؤلمة . صفة الملحمة . وتنظر الى انها ضرب من ضروب البطولة والمجد . وان الأدب الذي صوّرها أدب ملحمي شعبي[1] .

كانت مدينة بلنسية من اكبر مدن شرقي الاندلس رائعة بجمالها وبساتينها ولذلك تغنى بها شعراؤها . فما كان نصيبها منهم في نكبتها ؟

ان ما بين ايدينا من اشعار لا يمثل الا نزراً يسيراً ـ بل أقل من اليسير ـ وهي ظاهرة عامة في هذا الموضوع والمفترض ان تجود قرائح الشعراء في مثل هذا الموضوع الوجداني النووي .. لفداحة النكبة وجللها .

روت المصادر أن ابا الوليد هشام بن احمد الوقش البلنسي (ت ٤٨٩ هـ) الذي كان قاضياً في بلنسية حين دخول العدو فرأى أحداث النكبة وتفصيلاتها الملحمية . ثم قدرت له النجاة فخرج عنها الى دانية[2]. وقد زعموا أنه صعد على أسوار بلنسية فأنشدها[3]

وأصل هذه القصيدة لما يزل مفقوداً . وما بين أيدينا هو ترجمة للنص اللاتيني نشره لاول مرة المستشرق الاسباني خوليان ريبرا . بلغة ركيكة على ضوء مخطوطات مدونة تاريخ اسبانية ثم تقدم الدكتور الطاهر مكي بترجمة النص بلغة سليمة مستعيناً بالنص السابق وبرواية شعبية يجدها منزوية في ديوان يضم قصائد تحمل اسم (ديوان السيد)[4] .

١ ـ بلنسية ؟ ! ... بلنسية ! ... مصائب كبيرة تحدق بك . انت تحتضرين واذا قدر لنا النجاة . فسيراه عجيباً من يعيش ويراك .

---

(٢) ملحمة السيد ٧٧ . وينظر مقالنا ، نكبة بلنسية بدخول السيد القمبيطور ، مجلة الجامعة العدد (٥) الموصل ـ شباط ١٩٨٠ .

(٣) تاريخ الفكر الاندلسي ١١٦

(٤) السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين بحث الدكتور حسين مؤنس في المجلة التاريخية المصرية ٣ / ١ / ٣٧ سنة ١٩٥٠ ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١١٦ .

(١) ملحمة السيد ، ص ١٦٤ ـ ص ١٦٦ وينظر دراسات اندلسية ٢٩٠ .

٢ ـ واذا اراد الله خيراً لهذا البلد ، فأملي كبير أن يتولاني برحمته فلقد كنت دواماً موطن الجمال والسرمد ، حيث يعيش المسلمون جميعاً في بهجة ومتعة .
٣ ـ العمد الاربعة التي تنهضين عليها ، يريدون ان يجتمعوا ليهدموها فيحزنوك وما هم بمستطيعين .
٤ ـ سورك العظيم الذي بني مع العمد الاربعة ، ترتج حجارته ويريد أن يقع بعد تضعضع اساسه .
٥ ـ أبراجك السامقة الارتفاع ، الرائعة الجمال ، والتي تلوح من بعيد فتدخل البهجة على قلوب اهلك تقع شيئاً فشيئاً .

وهكذا تمضي القصيدة مستعرضة أبرز المعالم الحضارية التي ازدانت بها بلنسية ، ايام مجدها الباذخ ، وكيف آلت الى الخراب والدمار ، فأصبحت تعبث بها الذئاب ، وأقفر مرساها الجميل ، من السفن التي تغدو اليها ، وكأن الوادي الأبيض غارت مياهه ونضبت وحمئت السواقي الصافية ، وأتت النيران ملتهمة ضياعها الواسعة ، حتى استعصى الداء على المداوى وانقطع الرجاء في الدواء .

ويبدو واضحاً ، أن القصيدة تصور معالم النكبة أثناء الحصار ، وبعده ، وعلى الرغم من فقدان النص الأصيل لهذه المرثية ، فإننا نستطيع أن نلمح معالم التجربة الفنية ، والصدق الشعوري ، فاذا كان من خصائص التجربة الشعرية الصادقة انها ترفعنا اليها ، لتمنحنا القدرة على الانفعال ، فأن في هذه القصيدة على فقدانها الكثير من عناصر التجربة ، لا سيما الوزن والقافية ـ ما يحقق الانفعال ، الذي هو غاية التجربة ، كما يحقق الصدق الفني ، الذي هو صدق الشعور ومطابقته لوجدان الشاعر .

وتمضي ثماني سنوات عجاف ، على استيلاء السيد القمبيطور ، تخضع فيها المدينة للنفوذ القشتالي ، حتى يقيض الله لها جيش المرابطين ، بقيادة ابي محمد عبدالله بن مزدلي ابن عم يوسف بن تاشفين ، فتتعرض المدينة لنكبة ثانية وخراب جديد إذ يأبى السيد القمبيطور مغادرتها الا بعد ان يحيلها ركاماً ... ولا تجود قريحة مواطنها ابن خفافة البلنسي الا بأبيات أربعة قائلاً[١] ،

عاثتْ بساحتكِ العِدا يادارُ ومحا محاسنك البلى والنّار
فإذا تردد في جنابكِ ناظرٌ طالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ

(١) ديوانه ٢٥٤

أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتَـمـخَـضـتْ بـخرابـها الأقدارُ
كتبت يدُ الحدثان في عَرَصاتها « لا أنت أنت ولا الديار ديارُ »

ولا يختلف الأمر كثيراً عند شاعر بلنسي آخر هو أبو عبدالله محمد بن خلصة البلنسي فيصورها في ثلاثة أبيات [١] :

وروضة زرتـها للأنـس مـبـتـغـيـاً فأوحشتني ذكرى سادةٍ هلكوا
تغيّرت بَعدهم خَرِباً وحُق لها : مكانَ نوارها أن ينبت الحسكُ
لو أنها نَطَقت قالتْ لفقدِهم : بانَ الخليطُ ولم يَرثوا لمن تركوا

ليت شعري هل وفىّ هذان الشاعران بأبياتهما هذه . للمدينة التي كلأتهما بظلالها الوارفة ؟

وتمضي الايام والسنون لتستعيد هذه المدينة مجدها وخيلاءها في ظل الأمن الذي تحقق لها بدخول المرابطين ، والسكينة التي اعقبتها في ظل الموحدين ، حتى يأتي عهدٌ تدور الدائرة فيه على الموحدين ، وذلك في مطلع القر السابع الهجري .

وقدّر لبلنسية ما قدر لمدن الأندلس الأخرى حيث تسقط الى غير رجعة عام ٦٣٦ هـ واذا كان الشعر الأندلسي ضنيناً في تصويره لنكبتيها السابقتين ، فإن نتاجاً غزيراً ـ شعراً ونثراً ـ يصل الينا ليصور نكبتها الثالثة أدق تصوير ، على ألسنة شعراء بلنسيين بروّا بها بعد أن أرضعتهم أخلافَها ، وأطعمتهم خيراتها ، وحقّ لهم هذا الوفاء والاخلاص .. لامثالها .

وفي مقدمتهم ابو عبدالله بن الابار البلنسي (ت ٦٥٨) الذي اشتهرت صرخته السينية التي مثل بها حاكم بلنسية (زيان) عند صاحب افريقية ابي زكريا بن أبي حفص ، فقام بها بين يدي السلطان منشداً وهي تعد فريدة في باب شعر الاستغاثة والاستنجاد « فضحت من باراها ، وكبا دونها من جاراها »[٢] وقد جاءت في سبعة وستين بيتاً برواية نفح الطيب ومطلعها ، [٣]

ادرك بخيلك خيل الله اندلساً ان السبيل الى منجاتها درسا

---

(١) الروض المعطار ٩٧ وفي ترجمة الشاعر ينظر الجذوة ٤٩ ، التكملة ، ٢٩٥
(٢) نفح الطيب ٤ / ٤٥٧
(٣) نفسه ٤ / ٤٥٧ ـ ٤٦٠ ، كذلك العبر ٦ / ٢٨٣ ، ازهار الرياض ٢ / ٢٠٧ وجاءت بعض أبياتها في الروض المعطار ١٠٠

وفيها تفصيلات قيمة عن طبيعة النكبة التي حلت بلنسية ، بله مدن الأندلس :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدّها تعسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسماً ... جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً ... وللنداء غدا أثناءها جَرَسا

وينتقل الى خطاب ابي زكريا مستجيشاً نخوته الاسلامية ، وأصالته اليعربية لاستنهاض المدينة المهيضة الجناح وتطبيب جراحها :

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلاً ولا حرسا
هذي رسائلها تدعوك من كتَبٍ ... وأنتَ أفضل مَرجوٍ لمن يئسا
وافتك جارية بالنَجح راجية ... منك الامير الرضى وألسيد النَدسا

ويمضي في مدح امير افريقية حتى يقول :

يا ايها الملك المنصور أنتَ لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
طهّر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخسا

وقد وصف القصيدة الدكتور احمد امين بانها قوية طويلة تفيض بكاء[1]

واذا كانت سينية ابن الابار قد ذاعت واشتهرت مقرونة باسم صاحبها[2]، فان قصيدته الثانية الهمزية المردفة بالالف الموصولة بالهاء مع الف الخروج ، القصيدة التي لا تقل مستوى فنياً عن سابقتها كانت نفثة أخرى لابن الابار ، ومطلعها :

نادتك اندلس فلبّ نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها

تجيء أطول نفساً من سينيته حيث جاءت في تسعين بيتاً ، وقد ظلت مجهولة الهوية لدى العديد من الدارسين[3]. لانها عرفت اول ما عرفت في كتاب نفح الطيب للمقري الذي أوردها دون عزو ، وظل قائل القصيدة مجهولاً حتى قيض الله

---

(١) ظهر الاسلام ٢ / ٢٨٦

(٢) اختصار القدح المعلى ١٩١ .

(٣) ينظر الادب الاندلس ، موضوعاته وفنونه ٥٢٧ ، ملامح الشعر الاندلسي ٢٠٦ ، الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، وممن تنبه او نبه الى نسبة القصيدة الى ابن الابار د . الطاهر مكي في كتابه دراسات اندلسية ١ ـ ٢

للدكتور عبدالسلام الهراس نشر ديوان شاعر بلنسية ابن الابار . فطالعتنا القصيدة في اول قصائد الديوان .

ولا نستطيع أن نقدر الفاصل الزمني بينهما لكنّ الراجح في الظن أن السينية اسبق في النظم لانها أشدّ حرارة من الهمزية . واوفر نصيباً من اعتمال العاطفة وغلوائها ـ لكن الهمزية لا تتأخر كثيراً عن السينية في العاطفة او البناء والمعاني التي ادار عليها الشاعر أبياته ... وقد قدم الدكتور الطاهر مكي دراسة وافية عن القصيدتين السينية والهمزية[1] .

وكان من أثر ذلك أن استجاب ابن ابي حفص . وجهز الاساطيل . ولكن الغوث والمعونة ـ على نحو ما تذكره المصادر ـ وصلا متأخرين . بعد فوات الاوان .

ومما جاء لابن الابار في هذه النكبة . فيما نطالعه في ديوانه . قصائد كثيرة . واكثرها تجري في باب المقطّعات وليس ذلك على ابن الابار كثيراً ولا بمنكر .. وهو البار بوطنه . ويسوق لنا المقري[2] رسالة له يخاطب بها ابا المطرف بن عميرة . حديثة حديث المتذكر لأيام الشباب . المتشبث بالاوطان . بعد أن ودّعها وداع الابن . واخنى عليها الذي اخنى على لُبد . ويضمن رسالته بيتين من قصيدة بلغت ثلاثة وعشرين بيتاً :

كزعزع الريح صكّ الدوحَ عاصفُها ... فلم يدع من جنى فيها ولا غُصُنِ
واها وآها بموت الصبر بينهما ... موت المحامد بين البخل والجبنِ

وهي اطول قصيدة بعد سينيته ـ في هذا المقام ـ وتتسم قصائده بسمتين اولاهما : الندب والبكاء . والأسف والحسرة . فقد استهل نونيته السابقة بقوله[3] :

وطن على الدائبين : الدمع والشجن ... يانادب الذاهبين : الاهل والوطن
هذا فؤادي كالبرق الخفوق اسى ... وهذه أدمعي كالعارضِ الهتنِ
براحتي رايةُ الاشجان أحملها ... وان غدا الجسم وهنا ليس يحملَني

وثاني السمتين . عند ابن الابار في هذه القصائد . امتزج البكاء بالذكريات العبقة . حيث الجنان التي ارتسمت صورتها في مخيلته هو ذا يقول :

---

(١) دراسات اندلسية ٢٩٥ ـ ٣٠٦

(٢) النفح ٤ / ٤٩٧ ، الروض المعطار ١٠٠

(٣) ديوانه ق ١٤٩

وجنة حلّ اهل النار ساحتها لم يغن حَمل القنا عنها ولا الجنُن
وجدى بها وبعيش في حدائقها وجد الذي أرّقت عيناه بالوسن

والقصيدتان الاخريان دالية في اربعة عشر بيتا وعينية في اثنى عشر بيتاً ، يقول في الاولى مستخدماً صيغة الماضي في تذكر الجنان والمرابع[١] :

كلما هبست الصبا ذكر الشو قَ ففاضت عيناه شوقاً ووجدا
يا سقى الله للرصافة عهداً كنسيم الصَبا يَرِق ويندى
ليت شعري هل يرجع الدهر عيشاً يشهد الطيب انه كان شهدا
حيث كنا نغازل النرجس الغـ ضَ جفونا ونهصر الآس قدا

ويقول في عينيته[٢] :

أبينَّ وأشتياق وارتياع ؟ لقد حُمّلتُ ما لا يستطاعُ
ورؤّعني الفراق على احتمالي ومن ذا بالتفرق لا يراع
فالعبرات بعدهم انحدارٌ وللزفرات اثرهم ارتفاع

وفي الديوان ـ فضلاً عما تقدم ـ ست مقطعات[٣] يكفي أن نشير الى بعضها المتميز ، فمن ذلك قوله في حائيته التي يلاحظ فيها سمة الجناس في أبياتها[٤] .

ملكت جوارحه عليه جراحه فشفاؤه لا يُرتجى وسراحه
لم يعترضه مساؤه بمساءةٍ الا وضاعفها عليه صباحه
قد اسلم الاسلام فيه الى العدى فأساه برح لا يتاح براحه

ويقول في الأخرى[٥] :

لامَ المحبّون الفراق ولمتُه لكنهم سئموا ولمَا أسأمِ
فعليَّ فلتبكِ البواكي ، انني أخرجت من وطني ولست بمجرمِ
لا أستريح بغير ليل أليلِ اشكو تطاوله ويوم أيوم

---

(١) ديوانه ق ٧٧
(٢) نفسه ق ١٧٠ .
(٣) ينظر ديوانه ق ، ٥٧ ، ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ » .
(٤) ديوانه ق ٥٧ .
(٥) ديوانه ق ١٢٥ .

ونراه يعود ثانية الى آثار الفراق في نفسه ، وكان مما أجج كوامن عاطفته ، بعده عن اسرته وعدم استطاعته العودة اليهم فهي أزمة تذكر بأزمة ابن حمديس الصقلي[1] :

أيا أسفى على عدم الهجوع ... وفقدان الأحبة والربوع
يشق عليّ عن أهلي نزوحي ... ويغلبني الى وطني نُزوعي
فكم أبكى الديار وساكنيها ... بطرف مسعدٍ ودمٍ هموع

ولا يملك الا التشبث بوطنه ، والدعاء له بالسقيا ، على البين المشت[2] :

بلنسية يا عذبة الماء والجنى ... سقيت وان أسقيت صوب الرواجس
ومن عجب أنّ الديار أو اهلّ ... وأندبها ندب الطلولِ الدّوارسِ

وعلى الرغم من أن ديوان ابي المطرف بن عميرة (ت ٦٥٨ هـ) ليس بين ايدينا ، فأن ما نقله مؤرخو الادب عنه يدلنا على أنه لم يكن أقل وفاء لوطنه ومسقط رأسه ، فقد روي الحميري أن سقوط بلنسية ترك أثراً كبيراً « فأكثر ادباؤها بكاءها والتأسف عليها نظماً ونثراً »[3] ومما كتبه ابو المطرف اربع رسائل اوردها الحميري متوالية ، جاءت الاولى موجهة الى ابن الآبار ، ويغلب ان تكون الثلاث الباقيات كذلك وقد ضمن رسالتيه الثانية والثالثة ، ثلاث مقطعات في ستة أبيات ، على وزن الدوبيت يظهر فيها معاني الاسى والأسف اذ يقول[4] :

اين الصبر وفؤادي أنسيه ... لم يبق لقومه على الرمي سيه
هيهات يحور ما مضى من إنسيه ... من بعد مصاب حلّ في بلنسيه

وأما رسالته الرابعة فهي مستهلة بالنثر تعقبها قصيدة رائية رائعة في خمسة عشر بيتاً ، تعد من القصائد المنمازة ، حيث تفيض جزعاً ولوعة وتفجعاً وفيها يقول[5] ،

ما بال دمعك لاينى مدراره ... ام ما لقلبك لا يقر قراره ؟
ألوعة بين الضلوع لضاعن ... سارت ركائبه وشطت داره
ام للزمان أتى بخطب فادح ... من مثل حادثه خلت اعصاره

---

(١) ديوانه ق ١٧١ .
(٢) ديوانه ق ١٨٦ الاصل : « أشقيت » وهو تصحيف وارتجت السماء اذا رعدت شديداً .
(٣) الروض المعطار ص ٩٧ .
(٤) نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٥) الروض المعطار ٩٩ .

بحر من الاحزان عب عبابه وارتج ما بين الحشا زخاره
اما بلسنسية فمثوى كافر حفت به في عقرها كفاره

وبين ايدينا قصيدة رائية اخرى لابي المطرف اطول من سابقتها جاءت في اكثر من ثلاثين بيتاً ومطلعها[1] :

أقلوا ملامي أو فقولوا واكثروا ملومكمُ عما به ليس يقصر

وفيها يظهر جزعه واساه على مدينته الباسلة ويندب معاهدها التي تغيرت ودورها التي اقفرت ويشبه نفرته وبني قومه عن منازلهم بنفرة الحجيج من المحصب .

ويندب عهداً بالمشقر فاللوى وأين اللوى منه ؟ وأين المشقر
وأقفر رسم الدار إلا بقية لسائلها عن مثل حالي تخبر
فلم تبق إلا زفرة إثر زفرة ضلوعي لها تنقدّ أو تتفطر
كفى حزناً أنا كأهل محصب بكل طريق قد نفرنا وننفر

ويستعرض شريط الذكريات ، في مخيلته ، ليتنفس من خلاله الصعداء . فيستعرض تلك الأماكن العبقة المزدانة بالجمال ، مغانيها المغدقة ، وملاعبها المؤنسة ، وانهارها التي أمست آزائها معاهد القوم بحيث يصفو أنسهم بها ، فيقول :

ليال بماء الورد ينضح ثوبها وطيب هواء فيه مسك وعنبر
وبالجبل الأدنى هناك خطى لنا إلى اللهو لا تكبوا ولا تتعثر
جناب بأعلاه بهار ونرجس فأبيض مفترُّ الثنايا وأصفر

ثم يعود ليسدل السّتار على تلك الهناءة وايام السعادة والبلتهية فيقول :

كذاك الى أن صاح بالقوم صائح وأنذر بالبين المشُت منذرُ
وفرقهم أيدي سبا وأصابهم على غرة منها قضاء منقدر

---

(١) النفح ٤ / ٤٩٣ ، ولابي المطرف قصائد اخرى في هذا الاتجاه ينظر ابو المطرف بن عميرة ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

ويبدو أن بلنسية تعرّضت في حياتها الى ازمات ونكبات . وذلك ما جعل ابا عبد الله محمد بن عياش التجيبي (ت ٦١٨ هـ) يتشاءم من ذكرها . ويتمنى فراقها حيث يقول[١] :

بلنسيةُ بيني عن القلبِ سَلوةً فأنك روضٌ لا أحنّ لزهركِ
وكيف يحب المرء داراً تقسّمت على صارمي جوعٍ وفتنة مشركِ

ومما يتصل برثاء بلنسية . إصابة قرية من أعمالها في وقعة « بطرنه » وذلك سنة ٤٥٦ هـ وقد التقط وصفها ابن بسام من فم من شهدها بعد أن جهد في التعرف على خبرها عند ابن حيان فلم يجده وقد كان مصاب المسلمين في نفوسهم واموالهم بتلك النكبة عظيماً وكان السبب في نزولها بهم . استهانتهم بالعدو وغفلتهم عن التدبير لشأنهم . وتغريره بهم حتى انهم خرجوا الى لقائه على نحو ما يصف الكميت وقد يتمثل به ابن بسام[٢] :

يمشون مشى قطا البطاح تأوداً هيف الخصور رواجح الأكفال

وجل ما حفظته كتب الأدب في تلك الوقعة بيتان لابي اسحاق ابراهيم بن المعلى صورا ابلغ تصوير هزيمتهم النكراء . وفي البيتين من الدلالة . ما يعرض عما قيل فيها وفقد[٣] :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم الوانا
ما كان اقبحهم واحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

وقد ساق ابن بسام البيتين في باب « الايماء » الذي هو ضرب من فنون البديع . وعدّه من غرائب الشعر وملحه[٤] .

---

(١) زاد المسافر ١٣٦ وينظر الروض المعطار ١٠١ . وقد امتعض من هذا القول الشاعر البلنسي ابو الحسن بن حريق (ت ٦٢٢ هـ) فقال مجاوباً :

بلنسية نهاية كل حسن حديث صحّ في شرق وغرب
فإن قالوا محل غلاء سعر ومسقط ديمتي طعن وضرب
فقل هي جنةٌ خفّت رباها بمكروهين من خوب وحرب

ينظر في الابيات المصدران السابقان والنفح ١ / ١٨٠ .

(٢) الذخيرة ٣٥ / ٢ / ٨٥٦ .

(٣) الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٥٠ . النفح ١ / ١٨١ .

(٤) الاخيرة ٣ / ٢ / ٨٥١ .

واذا كنا قد وقفنا عند بلنسية وما قيل فيها من أشعار . فأن شقيقتها « مرسية » سقطت بعد خمس سنوات من سقوطها . وذلك (٦٤١ هـ) . وقد رثيت هي الأخرى في قصائد منها قصيدة ابن الجنان المرسي (ت ٦٤٨ هـ) الفائية التي قالها في رثاء ابيه ثم مزجها برثاء مسقط رأسه ومرتع شبابه في حوالي عشرين بيتاً . ومنها قوله :[١]

يا غرْبة جرّها . والدار مكتئب ... صرّف من الدّهر عن أوطاننا صَرَفا
إذ صار فيهن دينُ الحقّ مغتربا ... يرتاعُ إن صدّ ناب الكفر أو صَدَفا

ولشدة تعلقه بآثار « مرسية » التي توافق من نفسه مأربا . يحدثنا عن مسجد المدينة فيقول :

ويا لمرسية الغراء من بلدٍ ... أضحى مُنيراً وأمسى نُوره خُسِفا
ويا لجامعها الأعلى لقد وَضعت ... منه مجاورة التثليث ما شرفا
أذ كنت أشهدُ أطراف النّهار به ... مع المصلي وليلا أشهد الزُلفا
جاورتُ منه جمانا كان مجتمعا ... لبهجة الدين والدنيا ومؤتلفا

ويعود ليصارحنا بدخيلة نفسه ويحدثنا عن موضوع أطال الوقوف عنده شعراء الاندلس ـ كما تقدم بنا ـ ذلكم هو « الرحيل » و « الفرار » . اذ لم يكن خواراً منهزماً :

فاذا رأيت أموراً كلها تلف ... فررتُ لله كيما آمن التلفا

ونقتصر على هذه القصيدة في رثاء مرسية . . إذ لم يتح لنا استقصاء ما قيل فيها . .

وأما اشبيلية التي سقطت بعد شقيقتها « مرسية » بأربع سنوات سنة ٦٤٥ هـ فليس بين أيدينا في رثائها الا قصيدتان : الاولى : لابن سهل الاندلسي (ت ٦٤٩ هـ) وهي قصيدة تدخل في باب استنهاض الهمم وشحذ العزائم . يستنفر فيها الشاعر عن والي اشبيلية ابو عبد الله بن ابي عمران عربَ المعقل وهي في ثلاثين بيتاً ومطلعها :[٢]

---

(١) ديوانه (مخطوط) ت ٢٧
(٢) ديوانه ق ٤١ ص ١٤١ ـ ١٤٢

وِرداً فمضمون نجاح المصَـدر هي عزّة الدّنيا وفوزُ المحـشرِ

وكانت الأوضاع العامة للجزيرة الأندلسية . تنذر بالاخطار الجسيمة . ولذلك يدعوهم الى الاستبسال والتضحية فيقول :

يا معشر العرب الذين توارثـوا شِيَمَ الحمية أكبراً عن أكبـر
إنّ الاله قد اشترى أرواحـكم بيعوا . ويهنِكُمُ ثوابُ المشتـرى
وعـلا الجزيرة غيهبٌ وغمودكـم مطويةٌ فوق الصّباح المُسفِرِ
لم يبق للاسلام غيرُ بقيةٍ قد وطنت للحادثِ المتنكّـر
والكفر ممتد المطالع . والهدى مـتـمـسـك بذناب عـيـش أغـبرِ
كم نكروا من معلم . كم دمّـروا من مَعشر . كم غيّروا من مشعـرَ

واما القصيدة الثانية فهي أبلغ في الدلالة على رثاء المدينة . اذ انها نظمت اثر اشتداد حصار الاذفونش لمدينة اشبيلية سنة ٦٤٥ . واشتداد أزمتهم بقلة ارزاقهم . وانعدام الطعام ... فخاطب (ابو موسى هارون بن هارون) في أكثر من ستين بيتاً . أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد والمسلمين من أهل عدوة المغرب يستصرخونهم ويرغبونهم في نصرتهم ومطلع القصيدة :[1]

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى لم يرع فيك الردى إلا ولا ذِمما

والروح السائدة في القصيدة هي الحزن واللوعة والبكاء بنكبة المسلمين في مدينتهم . والأستسلام لقضاء الله وقدره فيها . وتشخيص أدوائها التي انتهت بها الى ما انتهت اليه :

يا سائلي عن مصاب المسلمين بها اصخ لتسمع امراً يورث الصمما
لما تفرقت الأهواء واضطرمت نارُ البغاة فقامتْ للردى علما
يا حسرةَ الدين والدّنيا لأندلس مهما استطال بها التثليث واجترما

ومما خاطب به امير المؤمنين قوله :

فالمفزع الله والذّخر العتاد أمير المؤمنين . وحسبي في النّجاء هما
خليفة الله لولا النأي عنك لما أجزت فيّ لدهر جاز إذ حكما
وكنت كاشف كرب لا انكشاف له وقمت ودوني[2] من الاعداء منتقما

---

(١) البيان المغرب . القسم الموحدي ٣ / ٢٨٢ ـ ٢٨٥

(٢) الاصل « وقمت دوني » والصواب ما أثبتناه .

لقد قطعنا شوطاً طويلاً . ونحن نستعرض نكبات الاندلس في معاقلها وحواضرها واشعار الشعراء التي قيلت فيها . ونستجلي أوجه الشعراء منها ومواقفهم المختلفة . والصور التي انعكست بسبب تلك النكبات . وما يزال امامنا نتاج ضخم لا يقترن بسقوط مدينة معينة وثغر محدد . بل قصائد كثيرة حكت لنا نكبة المسلمين بسيطرة الاسبان عليها .

وأول سمة لهذه القصائد ان نبرة الرثاء والتأبين تختلط بموضوعين آخرين اولهما النقد السياسي والاجتماعي . وللصلة القوية والوشيجة المتينة بين الموضوعين . فقد كان الشاعر في منحاه التحليلي والتشخيصي لاسباب سقوط مدن الأندلس .. يلج هذا الباب باسلوب صريح تارة . وبالكناية والتعريض تارة أخرى . ومن الضرب الاول ما عرف به ابو القاسم خلف الالبيري المعروف بالسميسر[1] . وابو عبد الله محمد الفازازي (ت ٦٢١ هـ) الذي وصلت له مقطعة في اربعة ابيات[2]

وأما الموضوع الثاني الذي تتلابس به قصائد الرثاء . فهو الحنين والشوق الى ذكريات الشاعر العبقة في تلك الربوع التي أصبحت بلاقع . وتلك المدارس التي خلت من تلاوة . وقد لاحظنا في القصائد التي سقناها آنفاً . أنها تعج بهذه المعاني ولاسيما قصائد ابن الابار .

لقد وجد الدكتور مصطفى الشكعة ان جملة قصائد رثاء المدن والممالك الأندلسية اتسمت بسمات عامة هي[3] :

١ ـ عزا الشعراء أسباب سقوط الاندلس فيما عزوا الى الترف الشديد الذي أنغمس فيه الاندلسيون وفساد الحكم وظلم الناس والجور والاستبداد .
٢ ـ الحنين الشديد للمدن الساقطة .
٣ ـ تنبيه العاطفة الدينية ممزوجة بالعاطفة الانسانية .
٤ ـ استصراخ الشاعر وطلب النجدة من المسلمين .

وأضاف الى هذه السمات الاربع سمتين اثنتين . لم تكونا موضع التزام عند كل الشعراء هما :

---

(١) تنظر ابياته في الذخيرة ١ / ٢ / ٨٨٥ وفي النفح ٤ / ١٠٨
(٢) النفح ٤ / ٤٦٧ .
(٣) الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

١ ـ اصطناع الحكمة والحديث عن مصائب الدهر .
٢ ـ رثاء الدول من خلال رثاء ملوكها .

ان بعض قصائد الرثاء يأتي جزءاً من قصيدة . وبعد أن تقدم بنا آنفاً الوقوف على رثاء مدن الاندلس . واحدة تلو الأخرى . في تسلسل زمني متقارب وذلك منذ مطلع القرن السابع الهجري . على أن بعض قواعد الأندلس ومدنها سقطت منذ اواخر القرن الخامس الهجري . ومن المصادر القديمة التي أرّخت سقوط مدن الاندلس نفح الطيب للمقري[١] ومن المحدثين قدم لنا الاستاذ محمد عبد الله عنان جدولاً تاريخياً لسقوط احدى وثمانين مدينة وقاعدة اندلسية[٢] مرتباً هذه المدن وفق حروف الهجاء ..

ولكأننا امام شجرة مثقلة بالثمار مزدانة بها تخطر في خيلاء ونعماء . ولم تزل كذلك يستمتع بها الناظرون ويهولهم ما هي عليه فاذا هي . تنفض ثمارها في غير ما أوانها . وتساقط أوراقها لا من هرم او شيخوخة .. فقد تساقطت هذه المدن تساقط الشهب . وهي أشد ما تكون لمعاناً وبريقاً . فخسف نورها . وكسفت بشاشتها وبهجتها بدخول الاسبان ... دعك عن الروع والهلع الذي حلّ بها بعد أمنها وطمأنينتها ...

تألبت اوربة مع اسبانية على مدن الاندلس فاخترمتها واحدة تلو الاخرى .. وانتهت دولة الاسلام في الاندلس فريسة سائغة . وغنيمة باردة لحكام قشتالة وليون والنافار بعد أن فل عضدهم . وفتت قواتهم وبأسهم .. بتفرقهم .. ونزوعهم الى الملذات وخلودهم الى الترف وتقاعسهم عن الأخذ باسباب النصر . على نحو ما اشاروا اليه في قصائدهم .

وأما ما نظم في رثاء الاندلس جملة . من قصائد . فهي بحدود خمس . تتصدرها شهرة وذيوعاً نونيه الرندى التي مطلعها :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغرّ بطيب العيش انسان

لقد ذهب النقاد في الاعجاب بها مذاهب كثيرة . ووقفت عندها دراسات كثيرة .. وليس من شك في انها من الناحية الفنية تأتي في مقدمة قصائد رثاء الاندلس . ذلك لأنها تفيض لوعة وحزناً وتعج بالمشاعر والعواطف ازاء الاندلس . ومن الغريب ان

---

(٢) النفح ٤ / ٤٦٠ ـ ٤٧٢ .
(٤) الآثار الاندلسية الباقية ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

يقدم الدكتور أحمد امين[1] رائية ابن عبدون عليها ، وقد مرت بنا ، وعلمنا أنها كانت معرضاً تاريخياً للاحداث البشرية منذ اقدم عصورها .. لكن نونية الرندى ، تفيض بالعواطف والمشاعر .. ، وهي سمة رئيسة في الشعر الجيد ، لا نجد لها بعداً عند ابن عبدون .

ومن الدارسين المحدثين ، قدم الدكتور عمر الدقاق دراسة عن القصيدة فبسط معانيها التي دارت فيها وابرز خصائصها التي تميزت بها ، وقد اشار الى انها تتوجه بالاستنجاد والاستصراخ في اطار من مشاعر الاسى والمرارة مسربلة بغلاله خفيفة من السخر والتقريع ، انها صرخة استغاثة لاولئك الناعمين بالطمأنينة والراتعين بالدعة وراء البحر[2] ـ ولعل اوفى الدراسات التي قدمت عنها دراسة الدكتور الطاهر احمد مكي[3] .

وأما القصيدة الثانية التي طبقت اصداؤها الخافقين فهي رائية مطلعها :

احقا خبا من جو رندة نورها وقد كسفت بعد الشموس بدورها

جاءت في مائة وأربعة وأربعين بيتاً .. وقائلها مجهول ويبدو انه من المرية التي سقطت عام ٨٩٤ هـ وان اسمه فيما يرجح جعفر بن خاتمة ، وهي نداء من النداءات الكثيرة التي وجهت الى السلطان العثماني بايزيد الثاني[4] . ومن الدراسات المبكرة التي وقفت عندها ما كتبه الاستاذ عنان[5] وما كتبه الدكتور الطاهر مكي[6] .

ولعل أبرز ما يميز القصيدة ـ كما يرى الدكتور عمر الدقاق ـ تلك النبرة الدينية العالية التي لا تكاد تفارقها .. ذلك الالحاح على أهمية العقيدة والايمان في ادراك النصر واسترداد الحق امر طبعي في عصر كانت خلاله الحماسة الدينية هي العروة الوثقى والرابطة الأقوى التي تجمع الشمل المبدد والشَعث المفرق . على ان ذلك من جهة اخرى قد اوقع اسلوب الشاعر احياناً بالنثرية[7] .

---

(١) ظهر الاسلام ٢ / ٢٠٧ .

(٢) ملامح الشعر الاندلسي ٢١٤ .

(٣) دراسات اندلسية ص ٢٠٧ ـ ٢٦٠ .

(٤) قصة الادب في الاندلس ١ / ١٣٢ ـ ١٣٨ .

(٥) مجلة الرسالة العدد ١٣٢ ـ ٢ يناير ١٩٣٦ .

(٦) دراسات اندلسية ٢٦١ ـ ٢٨٢ .

(٧) ملامح ٢١٨ ـ ٢١٩ .

ويحتفظ لنا الرعيني في برنامجه قصيدة لابي جعفر احمد بن ابراهيم بن خلف بن الحبيب القرشي العامري (٦٢٤ هـ)[١] الذي كان قاضياً بغرناطة وغيرها . قصيدة طويلة في رثاء الاندلس ولعلها تكون اقدم قصيدة تنظر الى مدن الاندلس الساقطة مجتمعة بعد أن وقف الشعراء السابقون أشعارهم على مدن بعينها . وترد القصيدة في الاحاطة[٢] منسوبة الى ابي الشاعر ابي اسحاق ابراهيم بن خلف (ت ٥٧٢ هـ) وهي أن تكون للابن اقرب . وذلك لأن سقوط مدن الاندلس في عهد الأب لم يكن مثله في عهد الابن وفيها يقول :

الا مسعدٌ منجدٌ ذو فطن ... يبكي بدمع مُعين هَتَنْ
جزيرة أندلس حَشْرة ... لما غالها من خطوب الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ... ويرثى من الشرع ما قد وهن
ويشكى الأيامى وُيبكي اليتامى ... ويحكى الحمام ذوات الشجن
لقد حللتها صروف الردى ... شآبيبُ كربٍ كمثلِ الدَّجن

وقد اشار ابن الخطيب الى طول القصيدة . ونص الرعيني على انها تنيف على المائة بيت[٣] .

وممن رثى الاندلس . ابو جعفر الوقشي البلنسي . وزير ابن همشك في قصيدة يخاطب فيها أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن . وفيها يصف حال الاندلس . ويبعث على الجهاد ومنها قوله[٤] :

الا ليت شعري هل يمدّ لي المدى ... فأبصر شمل المشركين طريدا

ونعتقد أن رثاء الاندلس في قرونه الثلاثة الأخيرة يحتاج الى دراسة تفصيلية تستقري نصوصه وتتبعها .. والاشعار التي قيلت في رثاء الاندلس في ظل دولة بني الاحمر كثيرة . وهي أكثر مما وصل بين ايدينا من رثائها في عصورها الاولى . لأن نكبة الاندلسيين باوطانهم كانت في هذا العهد أشد وأعنف . وقد اتصل بكاؤهم عليها بعد سقوط دولة بني الاحمر كذلك[٥] .

---

(١) برنامج شيوخ الرعيني ١٣٢ رقم ٥٨ .
(٢) الاحاطة ١ / ٣٦٦ .
(٣) برنامج شيوخ الرعيني ، ١٣٣ .
(٤) النفح ٤ / ٤٧٨ .
(٥) علمت أن السيد ابراهيم عبد وهيب يعد رسالة تحت عنوان « شعر النكبة في الاندلس بعد سقوط غرناطة » جامعة محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض ١٤٠٠ هـ .